

دراسة في المظاهر الحضارية في البيوت البغدادية في العصر العباسي: المراوح ، والثلج انموذجا .

A study in the cultural manifestations in the Baghdadi houses in the Abbasid period : fans, snow as an example.

أ.م.د. رشا عبد الكريم فالح حسن¹ ، قسم التاريخ، جامعة البصرة/مركز دراسات البصرة والخليج العربي(العراق)
Rāšā 'Ābdelkārīm Fāleḥ Ḥāsān ; University of Basra, Irak. Rashareem200060@hotmail.com.

تاريخ النشر: 2023/07/31

تاريخ القبول: 2023/07/20

تاريخ الإستلام: 2023/03/27

الملخص:

تعتبر بغداد ذات حضارة راقية من كافة النواحي الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والبيئية بالإضافة الى الناحية العمرانية التي كانت تشتهر بها ابنتها من بيوت ومساجد وقصور لكافة الطبقات الاجتماعية وما تضمنته من نماذج لصور المعيشية فيها من خلال ابتكار العديد من الوسائل لمواكبة الظروف الجوية فيها من حيث الحرارة والبرودة من خلال بناء السرايب والبادهجنانات بالإضافة الى استخدام مراوح الخيش للتخلص من حرارة الجو وأيضا من خلال استخدامهم للثلج لتبريد الماء والفاكهة حيث احتل الثلج مكانة كبير في حياة الناس وكثر استخدامه وخاصة في زمن الدولة العباسية كما كان للثلج دور كبير في توفير أموال للدولة من خلال فرض الضرائب عليه وبالتالي يتم توفير مورد مالي لخزينة الدولة .

الكلمات الافتتاحية: المراوح ، الثلج ، الدولة العباسية ، السرايب ، القصور ، البيوت.

Abstract

Baghdad is considered to have a sophisticated civilization in all social, economic, intellectual and environmental aspects, in addition to the urban aspect, which was famous for its buildings, including houses, mosques and palaces for all social classes, and what it included of models of living images in it through the innovation of many means to keep pace with the weather conditions in it in terms of heat and cold. During the construction of catacombs and pavilions, in addition to the use of burlap fans to get rid of the air temperature, and also through their use of snow to cool water and fruits, where snow occupied a great place in people's lives and was used a lot, especially during the time of the Abbasid state. Snow also had a major role in saving money for the state by imposing taxes on it. Thus, a financial resource is provided to the state treasury.

Key words: fans, snow, Abbasid state, catacombs, palaces, houses.

¹ أ.م.د. رشا عبد الكريم فالح حسن، Rashareem200060@hotmail.com

مقدمة:

تعتبر مدينة بغداد من المراكز الحضارية والاشعاع من كافة النواحي الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والبيئية فكانت محطة انظار البلدان وخاصة العلماء والمثقفين لما احتوت عليه من مكتبات ضخمة ومؤلفات عديدة بالإضافة الى المراكز الخاصة بنشر العلوم منها المكتبات الضخمة ودار الحكمة وغيرها من المراكز الأخرى

اذ احتلت مدينة بغداد التي تعتبر واحدة من المدن المهمة في البلاد العربية الإسلامية خلال ازدهار الحضارة العربية مكانه الصدارة بكثرة قصورها وبيوتها الكبيرة والعمارات الواسعة على مر العصور.

فهي من أعظم المدن في العالم خلال القرون الوسطى في كل جوانب الحياة سواء كان في الجانب العمراني او الحضاري او الثقافي، لما تركته لنا من اثار في مختلف المجالات الأدبية والعلمية والفنية.

كما تعتبر ابنيها أعظم تجربة معمارية للعرب المسلمين في تلك الفترة خلال العصر العباسي اي بحوالي منتصف القرن الثاني الهجري، وما تركته من بصمات على بقية المدن.

إذا توسعت بشكل كبير وضمت فيها العديد من المساجد والقصور والبيوت والاربطة والمداس والقناطر والجسور والابراج والحمامات والطواحين والحدائق والمتنزهات.

اعتمدت الدراسة على مصادر عديدة ومتنوعة في نهاية البحث من كتب تفسير ومصادر أدبية وجغرافية وتراجم ومراجع حديثة من كتب الادب واللغة منها كتاب ابن منظور، ابا الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، (ت711هـ/1311م): لسان العرب، ألا أن أهم المصادر المعتمدة في هذه الدراسة كانت من كتب التاريخ العام وافدنا بشكل كبير منها كتاب ابن طيفور ، أبو الفضل احمد بن ابي الطاهر (ت280هـ): كتاب بغداد وكتاب البلاذري (ت279 هـ / 883 م) الأول (انساب الاشراف) الذي تضمن معلومات قيمة. ويوازيه بنفس الأهمية (كتاب تاريخ الرسل والملوك للطبري (ت310 هـ / 922م) ، الذي أشار بالتفصيل وبسلسلة زمني للوضع السياسي والأحداث التي مرت بها بغداد فضلا عن احتوائه على معلومات عن الوضع الاقتصادي والاجتماعي والحضاري والعمراني ، و كتاب الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (ت463هـ / 1070م) ، تاريخ بغداد الذي امدنا بالمعلومات القيمة عن مدينة بغداد ، كتاب السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت562هـ/1166م): مختصر تاريخ بغداد ، كما أفاد البحث من دراسات وبحوث حديثة حلواني، رثيفة، البريد في عصر الماليك ،رسالة ماجستير غير منشورة ،بيروت ،وكتاب ،عبد العزيز ابراهيم العمري ،الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم ، بالإضافة للعديد من المصادر الاخرى التي ارفدتنا بالكثير من المعلومات القيمة .

1. أهمية موقع مدينة بغداد بالنسبة للمصادر التاريخية

الموقع : وقد ذكر اليعقوبي بأنها وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها سعة وكبراً وعمارة وكثيرة المياه وصحة وهواء وقد سكنها من أصناف الناس واهل البلدان يجري في حافيتها نهران عظيمان دجلة والفرات¹.

من خلال ذكر المصادر التاريخية عن مدينة بغداد يتضح ان اسمها يعود الى لفظة فارسية في الأصل². لكن المرحوم يوسف غنيمه والذي يعتبر اول الباحثين العرب يرى ان لفظة بغداد آرامية وليست فارسية واصبح كلامه هو الأساس الذي بنى عليه اراء الباحثين فيما بعد³ كما اقترن اسم بغداد بأضخم حضارة شهدها العالم في القرون الوسطى.

فهي تعد من مفاخر العرب المسلمين في كافة المجالات ولقد أشار الخطيب في وصفها ، ما ذكره الجاحظ "لقد رأيت المدن العظام، بالشامات وبلاد الروم وفي غيرها من البلدان فلم أرى مدينة قط ارفع سمكا ولا اجود استدارة ولا انبل نبلاً ولا أوسع ابواباً ولا اجود فصيلاً، من الزوراء وهي مدينة ابي جعفر المنصور كأنما صببت في قالب وكأنما افرغت افراغاً"⁴

والسبب في اختلاف اراء الباحثين لمدينة بغداد بدأت في المصادر المعمارية التي اختارها المنصور والمهندسين الذين اشرفوا على البناء فالمدينة كما وصلت اخبارها من المؤلفات العربية⁵.

أما بخصوص المساجد في بغداد فيرى اليعقوبي ان المنصور " جعل المدينة أربعة أبواب باب سماه باب الشام وباب سماه باب البصرة وباب سماه باب خراسان وباب سماها من خارج الخندق "⁶.

عند النظر بشكل دقيق على موقع بغداد وأهميتها على الرغم من وجود العديد من العواصم في تلك المنطقة اذ اختار المنصور موقعها غرب نهر دجلة لما لهذا المكان من أهمية في العصور القديمة .

كما إشار صاحب كتاب مختصر تاريخ بغداد "ان سبب بناء المدينة لأهمية موقعها من جهة ادارة الملك ولا يخفى لما في ذلك من غاية عظيمة وهي تدبير امر الدولة "⁷

إذا ما نظرنا للروايات بخصوص اختيار موقع مدينة بغداد يتبين لنا ان سبب اختار المنصور لموقعها هو لعدة أسباب منها العسكرية لحمايتها من الهجمات المتكررة من القوى المعادية لحماية اقتصادها وتجارتها بالإضافة الى النواحي الصحية والطبيعية.

2. أهم المظاهر الحضارية في البيوت البغدادية:

لقد اختلفت البيوت في بغداد بالنسبة للفقراء والاغنياء من حيث طرق البناء فمنذ القدم كانت مشاهد البناء وزخارفه وكيفية بناء الدور والمساكن في بغداد في تلك الفترة فكانوا يكثر في بناء مرافق الدور ويكثر في تنظيمها لتصبح مريحة وخاصة في فصلي الصيف والشتاء وطرق التبريد بالإضافة لتهوية المنزل وتدفئته وطرق تأثيث الغرف والافرشة ، بالإضافة لأبواب الدور اذ كانت تصنع من الخشب المحلى بالنقوش وكانت الغرف في دور كثيرة من سراة القوم تغلف من داخلها بالواح من خشب الساج الهندي ويطعم بخشب النارج على اشكال زخارف ونقوش وكتابات وغيرها .

أما بالنسبة للمياه فكانت تأتي للمناطق في بغداد من قناتين وكانت مغطاة بطريقة محكمة فكانت أحدهما تأخذ من نهر كرخايا الذي يأخذ من نهر الفرات في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالنورة والاجر من أعلاها معقودة عقد وثيق فتدخل المدينة وتنفذ في أكثر شوارع الأرباض تجري صيفاً وشتاءً فكانت التصميم الهندسي بشكل رائع بحيث لا ينقطع لها ماء في أي وقت⁸.

أما البناء في زمن الدولة العباسية فلقد انتشر نوع من الطراز عظيم البناء يعرف ب (الحيري والكمين)⁹ فالحيري ينسب إلى مدينة الحيرة وأول من أوجده الخليفة العباسي المتوكل على الله بن المعتصم خلافته (232-247هـ/847-861م).

اذ أشار المسعودي أشار (اوجد المتوكل خلال فترة حكمه بناء لم يعرفه الناس والذي هو الحيري والكمين والأورقة، فقد كلمه بهذا في إحدى الليالي سماره ان لبعض ملوك الحيرة من النعمانيين بني نصير اوجد بنيانا في دار قراره أي الحيرة على شكل صورة للحرب وهيئتها للهجة بها وميله إليها حتى لا يغيب ذكرها في سائر أحواله، اذ كان الرواق يوجد به مجلس الملك فهو الصدر بالإضافة الكمان ميمنة وميسرة ويكون في البيتين اللذين هما الكمان من يقرب إليه من خواصه واليمين منها خزانة الكسوة والشمال ما احتيج إليه من الشراب والرواق قد عم فضاؤه الصدر والكمين والابواب الثلاثة على الرواق فسمي هذا البناء الحيري والكمين إضافة للحيرة ونوع من الثوب المصنوع بها، فاتبع المتوكل ذلك في اتماما بفعله واشتهر إلى هذه الغاية)¹⁰

وفي هذا الصدد نجد أحد الباحثين قد مدح هذا البناء الدكتور ارنست اميل هرتسفلد المستشرق الألماني المختص بعلوم الآثار في بلاد الشام والعراق وفارس (فقد اجاد العرب في وصف ذلك البناء اجادة جيدة اذ صدقوا عندما قالوا ان الحيري بكمين يشير إلى مثال عسكري روماني ذاهب للحرب بجناحين ميمنة وميسرة)¹¹.

وأيضاً نجد البيوت الخاصة بالخلفاء والوزراء والأمراء وأعيان الناس في بغداد شملت العديد من القصور مما يلي من الأبواب في القصور من الداخل فهو البهو مقدم الدار وفي الأعلى منه بناء فيقف شامخاً مزين بالشرفات، وبهذا الصدد ذكر ابن المعتز في وصف قصر الثريا الذي قام ببنائه الخليفة العباسي المعتصم بالله في بغداد:

حللت الثريا خير دار ومنزل فلا زال معموراً وبورك من قصر

وبنيان قصر قد علت شرفاته كصف نساء قد تربعن في الأزرق¹²

يتبين لنا احتواء قصر الخلافة في بغداد على العديد من المساكن والبساتين بالإضافة للمساحات المغطاة بالأشجار بالإضافة القبة والأروقة مما يزيد في جماله وجود الأنهار والبرك المرصصة يجري بها الماء، وأيضاً قاموا برص الأنهار الصغيرة والسواقي وكانت أسفلها مطلية بالرصاص القلبي شديد البياض فهو أجود من الفضة المجلوة حتى لا يذهب الماء بدون فائدة

ومن أمثلة على البيوت التي تم بنائها على طراز (الحيري والكمين) بيت أبي القاسم علي¹³ بن أفلح، الذي كان من الشعراء المشهورين في أيام الخليفة العباسي المسترشد بالله وهو أبو منصور الفضل بن المستظهر بالله (512-529هـ/1118-1135م).

اذ "قام ببناء داره بعد ان غرم عليها عشرون الف دينار وذكر الف الف دينار ، اذ كان طولها ستين ذراعاً في أربعين وقد طليت بالذهب وعملت فيها الصور وكان حمامها من العجب اذ كان به بيت مستراح به أداة اسمها البثيون"¹⁴ ، ان فكره الانسان يمينا خرج الماء الحار واذا فكره من الشمال رج ماء بارد. وطلب ان يكتب الشر على أبواب داره .

و دار ابن جرادة في الأخرى كانت من الجمال لا يقل جمالها عن دار ابن افلاج اذ كان محمد بن احمد ابن جرادة¹⁵ من رؤساء بغداد زمن الخليفة القائم بأمر الله (422-467هـ/1031-1075م) وكان من اهل الثروة والشهامة وكان بيته بباب المراتب¹⁶ ببغداد تضرب بها الامثال فكانت تحتوي على ثلاثون دار وبها بستان وحمام ولها بابان على كل باب مسجد فاذا اذن المؤذن في احدها لم يسمع بالآخرى لاتساعها .

وأيضاً من البيوت الفخمة بيت الوزير ابن مقلة التي كانت على الشاطئ من نهر دجلة في بغداد وأيضاً غرم على اثرها بمال كثير بمقدار مئة الف دينار وذكر مئتين الف دينار ، فكان بها بستان كبير تجتمع فيه الطيور الكثيرة وتتكاثر بعدها اطلق عليها القماري والدباسي والنوبيات والشحارير والزرياب والهزار والفواخت والطيور التي من اقاصي البلاد ومن جهة أخرى من البستان وضع فيها الطيور التي لاتستطيع الطير مثل الطواويس والبط وخلف البستان الغزلان والنعام والايائل والارانب والبقر البدوية والابل وحمار الوحش ولكل صحن أبواب تنفتح الى الصحن الاخر فيرى من مجلسه سائر ذلك ، وبيت معز الدولة البويهي فقد كانت عن العظمة والفخامة تم بنائها سنة 350هـ/961م، التي تسمى المعزية¹⁷ في منطقة الشماسية في أعالي مدينة بغداد وقد صرف عليها مبالغ كثيرة لقد كان اختياره لهذه المنطقة بسبب الامراض التي يعاني منها فقد اوصاه الأطباء في الإقامة بمكان ذا هواء نقي وماء عذب ولقد جلب العديد من اليد العاملة والأدوات ومواد البناء من الجص وغيره وفي هذا الصدد ذكر ابن مسكويه بقوله (نزل سفلا في الأرض لبعض الاساسات : سنا وثلاثين ذراعاً ورفعها الى وجه الأرض بالنورة والاجر الى ان ارتفع فوق الأرض باذرع)¹⁸

وبما ان الدار تقع على نهر دجلة اذ قام ببناء مسنة عظيمة لها فهي البناء الحافظ للقصر من الماء من حد رقة اي المنطقة التي يغمرها ماء النهر ثم ينضب الشماسية الى بعض الميدان¹⁹

يتبين لنا ان مادة الاجر كانت كثيرة الاستخدام في بغداد في تلك الفترة وأيضاً نلاحظ وجود المباني الضخمة من الدور مما يدل على مدى التطور والرخاء التي كانت تعيشه مدينة بغداد خلال تلك الفترة .

أما بالنسبة للاختلاف الحاصل بين بيوت الأغنياء و بيوت الطبقات الأخرى فكانت بيوت الأغنياء معدة بشكل يناسب فصول السنة فكانت فيها السراييب التي تحت الأرض والاكثر من الباذنجات²⁰ التي تشبه المصفاة وأيضاً الخيش²¹ يليه الماء البارد بالإضافة الى بناء القباب من القصب الرطب الأخضر وغيرها.

فالخليفة العباسي أبو جعفر المنصور كان له بيت في الصيف يطين له في بداية خلافته (136-158هـ/754-775م) يقبل فيه وقد قام وزيره أبو أيوب المورياني باتخاذ ثياب كثيفة له تبل وتوضع على الالة التي تسمى (سباية) فوجد بردها فاستطاعها ، فقال له ما احسب هذه الثياب لو اتخذت من اكثف من هذه الا حملت من الماء اكثر مما تحمل وكانت ابرد فاتخذ له الخيش²² فكان ينصب على قبة ثم اتخذت بعدها الشرائح التي هي حبال من القصب تضع على الأبواب ، فاتخذها الناس²³

فروى احدهم : "دخلت على الخليفة هارون الرشيد فأذا هو في هيئة الصيف داخل بيت مكشوف وليس به فراش على مقعد عند باب في الشق الأيمن من البيت وعليه غلالة رقيقة وازار رشيدي وكان لا يخيش البيت الذي فيه ، لانه يؤذيه ولكنه كان يدخل عليه برد الخيش ولا يجلس فيه وكان اول من اتخذ في بيت مقيله في الصيف سقفاً يلي سقف البيت الذي يقيل فيه ، وكان يؤتى بغلائل القصب ، فتغمس بالطيب والزعفران وماء الورد ، فتنتشر حتى تجف فيفعل ذلك عدة مرات ، فيعقب بيت مقيله بالبخور والطيب " ²⁴.

ومن الصور الأخرى من صور الحضارة في بغداد

3. استخدام المراوح:

المراوح لغويا واستطلاحا: المراوح : لغوياً كسر الميم وهي التي يتروح بها ، "أي كسرت لأنها آلة ، وجمعها مراوح وقيل: رايتهم يتروحون في الضحى أي احتاجوا الى الترويح من الحر بالمروحة ، والخيش: ثياب رفاق النسخ غلاظ الخيوط تتخذ من مشاقاة الكتان ومن أردئه " ²⁵، وربما اتخذت من العصب والجمع أخياش ²⁶.

اما المعنى الاصطلاحي:

مروحة الخيش: فقد استعملت مروحة الخيش بالعراق، والتي تشبه شراع السفينة، اذ كانت تعلق من سقف البيت يشد حبل فيها ويدار بهامشها، تبلل بالماء وأيضاً ترش بماء الورد واذا أراد الشخص ان ينام في القائلة او الليل جذبها بحبلها ، اذ تذهب وتجيئ في البيت فيهب على الشخص النائم نسيم طيب ورياح باردة يبعد عن الشخص النائم الحر ويستطيب النوم له وهي بالأعلى ذاهبة وجائئة. ²⁷.

اما بالنسبة للبدايات الأولى لظهور المروحة ، اذ أشار الازرق في كتابه اخبار مكة عن النوار بنت مالك بن صرمة ام زيد بن ثابت قالت : "رايت على الكعبة قبل ان الد زيد بن ثابت وانا به نسئ مطارف خز خضراء وصفراء وكراراً واكسية من اكسية الاعراب ، وشقاق شعر (الكرار: الخيش الرقيق " ²⁸.

كما كان العرب يطلقون عرب الخيش او عرب الخيام ²⁹. فأشار صاحب كتاب (نهاية الارب) عن الخيش ³⁰. اذ استخدم للتخلص من الحرارة العالية وخصوصاً في العراق اذ كان مقر للخلافة العباسية في بغداد ، ولقد " اشير الى الخليفة العباسي انه قام بعمل الخيش الكتان في الصيف ، اذ لم يكن الناس يعرفه فكان الاكاسرة يطبنون كل يوم من أيام الصيف بيتا يسكنونه ، وبالغد يطبن بيت اخر " ³¹.

فالمراوح ³² ظهرت بشكل واسع في زمن الدولة العباسية كذلك استخدم الخيش بشكل كبير واخذ بالتطور بسرعة بسبب القدرة على حفظ الماء واستخدامه ليكون عازل عن الحرارة في أوقات الحر الشديدة ، واكثر استخدامه بدأت أيضاً في زمن هارون الرشيد عندما دخل على اخته عليّة بنت المهدي في قيظ شديد فوجدها قد صبغت ثياباً بزعفران وصندل ونشرتها على الحبال لتجف ، فجلس هارون بمقربة من هذه الثياب المنشورة فجعلت الريح تمر على الثياب فتحمل منها ريحاً بليلة عطرة ، فوجد لذلك راحة من الحر واستطابه ، فأمر ان يصنع له في مجلسه مثله فكثّر واستعمله الناس ³³. وأيضاً ذكر الطبري عن المنصور انه كان يطبن له في اول خلافته ، فأخذ له أبو أيوب الخوزي ثياباً كثيفة ، تبل وتوضع على سبايك فيجد بردها

فأستظرفها³⁴. كما كان للمهدي أيام أبيه قبة مخيشة تنتقل من مقيله الى مبيته ، ومن مبيته الى مقيله ، كما كان المهدي اول من اتخذ له الخيش الأبيض في خلافته (158-169هـ-775-785م)³⁵.

اذ استخدم الخيش بشكل واسع في العصر العباسي ومنهم أيضاً ما ذكر عن الخليفة المأمون " ان شكر مولاة ام جعفر بن جعفر بن المنصور قالت : سمعت المأمون امير المؤمنين (198-218هـ-813-833م) وكانت عنده ام جعفر فدعا بمقاريض ، فقال الغلام : قد ذهب بالمقاريض الى الشماسية ، ثم قال : يا غلام بل لنا الخيش فوق ، فقال الغلام لا ، قال : بل بيل ..."³⁶.

كما ذكر عن الخليفة المتوكل (232-247هـ-847-861م)، "قال يوما لبختيشوع الطبيب ادعني ، فقال السمع والطاعة ، فقال اريد ان يكون ذلك غدا ، وكان الوقت صائفاً وشديد الحر ، فقال بختيشوع لاعوانه امرنا كله مستقيم الا الخيش فانه ليس لنا منه ما يكفي ، فأحضر وكلاءه وامرهم بابتياح كل ما يوجد من الخيش بسر من رأى ، ففعلوا ذلك فقطع لداره كلها خيشاً حتى لا يجتاز الخليفة في موضع غير مخيش "³⁷.

اما في عهد الخليفة المقتدر (295-320هـ-908-932م) ، كان المتبع ان يدخل احد الفراشين ، ومعه رجاله الى دور حرام الخليفة لرش الخيوش التي فيها ، وكان لكثرة استخدام الخيش في هذه الدور ان خصص لها عدد كبير من الفراشين ليقوموا على امرها³⁸.

فكانت لمروحة الخيش مرت بمراحل عديدة الى ان وصلت لأداة تستخدم في العصر العباسي لأجل التخلص من الهواء الحار ، وبسبب استخدامه بشكل كبير لاحتفاظه بالماء لفترة طويلة ، بالإضافة لكونه يعتبر عازل للحرارة فقد كانت الجدران تخشش وأيضاً عملت بيوت من الخيش واخذ يتطور وخاصة زمن الخليفة هارون الرشيد اذا يتم تحريك الخيش المبلل ليحلب الهواء البارد والنسيم الطيب ومن طريقتها تنفيذ هذه المراوح فتؤخذ قطعة من الخيش في حجم السجادة او اكبر قليلاً او اصغر حسب مساحة الغرفة ويحشونها بأشياء صلبة قوية لا يسهل طيها مثل الحلفاء وبعدها تعلق وسط الغرفة ثم يجذبها رجل يكون بالبית جذباً رقيقاً ويتركها ويعاود جذبها كما تغمس احياناً بماء الورد فتطيب رائحته بالوقت نفسه الذي تبرده فيه "³⁹.

ومروحة اليد فهي أيضاً زمن الدولة العباسية فيروي ابن الجوزي (كان محمد بن عبد الله بن احمد ابن حبيب المعروف بابن الجنادة يتدين ويعظ ويتكلم على طريقة التصوف والمعرفة من غير تكلف الوعاظ فكم من يوم صعد المنبر وفي يده مروحة يتروح بها ...) ⁴⁰

اذ تعتبر مراوح الخيش أحد ابتكارات العباسيين للقضاء على الحر الشديد بالعراق اذ انتشرت في قصور الخلفاء وبيوتهم وبيوت الأغنياء مما يدل على سعة انتشارها. ومدى التطور الحاصل في زمنهم بمختلف المجالات ولم يقتصر على المراوح فقط بل بكل النواحي .

4. الثلج : يعتبر الثلج احدى الصور الأخرى من صور الحضارة في بغداد خلال العصور الإسلامية وازداد استخدامه في زمن الدولة العباسية مع تطور مظاهر الحياة الأخرى والرفاهية الحاصلة آنذاك فكان يستخدم بشتى أنواع الأطعمة والمشروبات بالإضافة الى تبريد الأطعمة وأيضا اثناء انتقالها من مكان لآخر كما استخدم أيضا لأغراض التبريد .

أ. تعريف الثلج لغة واصطلاحاً:

"الثلْج لغة من ثَلَجَ يَثْلُجُ ، ثُلُوجًا ، فهو ثالِج ، والمفعول مَثْلُوج به ، ويأتي بمعاني عدة منها اِثْلَجَ الماء أي ، اِشْتَدَّتْ برودته فتجمد "41 ، "ثَلَجَتِ السَّمَاءُ : أي أمطرت الثلج ، ثَلَجَتِ السَّمَاءُ الْقَوْمَ : أَلْقَتْ عَلَيْهِمُ الثَّلْجَ ، ثَلَجَتِ الْأَرْضُ : صارت ذات ثلج "42 " ثَلَجَ قَلْبُهُ : بُلْدَ ، ثَلَجَ صَدْرُهُ : سَكَنَ ، رَضِيَ ، اِطْمَأَنَّ "43.

لقد ظهرت العديد من التسميات للثلج في اللغة العربية ، مما يدل على ان الثلج كان معروفاً في الجزيرة العربية وان قل سقوطه ، ولذلك ورد ذكره بكثرة في احاديث الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) ، ومن ذلك قوله : ((الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب ، ومجره على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك ، وماؤه أحلى من العسل ، وأبيض من الثلج))44 ، وكذلك ورد في اللغة العربية ترادفات عديدة ، ومن هذه المسميات هي " العُهْدَة ، اَلْعُهْد ، اَلْهَمِيم ، اَلْهَمِيم ، اَلْجَز ، اَلصِّلَة ، اَلصل ، اَلطشيش ، اَلْهُدْنَة ، اَلثرد ، اَلضَّرْب ، اَلرش ، اَلطش ، اَلدجن ، اَلسبل ، اَلسبلَة ، اَلسقط ، اَلضحك ، اَلهلهل ، اَلعضرس ، اَلعضارس ، "45 لكن مع ذلك بقي اسم الثلج هو الاكثر شهرة والاكثر تداولاً من بقية الاسماء الأخرى.

اما اصطلاحاً : فهو تلك المادة البيضاء التي تسقط من السماء ، وهو عبارة عن جسيمات صلبة صغيرة جداً عالقة في الجو العلوي مثل ذرات الغبار أو الرماد وعند وجودها تتوفر الحالات الثلاث التي تمكن بخار الماء ليتحول من الحالة الغازية إلى الحالة الصلبة مكوناً الثلج ويتم ذلك بتكاثف جزيئات الماء على النواة و على إثر التصاقها مع بعضها البعض يتم في العادة بناء بلورة الثلج ، وتكون في هذه المرحلة عبارة عن صفيحة رقيقة ذات ستة جوانب و عندما تسقط هذه البلورة بسبب ازدياد وزنها ترتفع درجة حرارتها فيتكاثف عليها قدر أكبر من جزيئات الماء ، وهكذا تنمو ، حيث يتفرع من الصفيحة البلورية ست أذرع ، وفي درجات حرارة أكبر بقليل تذوب حواف البلورة قليلاً ، وذلك لإتاحة فرصة الالتصاق مع البلورات الأخرى ، وبهذا تتكون الصفيحة الثلجية46.

- البدايات الاولى للثلج تاريخياً

ففي العصور الاولى قبل الميلاد كان الثلج محل الاهتمام ، ففي تلك العصور استخدمت طريقة خاصة للحفاظ على بعض الموارد الطبيعية التي تعتبر من ضمن احتياجات الانسان اليومية دون صرف أي مجهود ، فمثلا تم انشاء بيوت الثلج و هي بيوت يتم حفظ الثلج فيها لفترة طويلة تكون في بعض الأحيان من الشتاء إلى الشتاء الذي يليه تقريباً ، وهي عبارة عن غرف تحت الأرض بناها الانسان بالقرب من مصادر الثلج الطبيعية مثل برك المياه العذبة. وتشير الروايات التاريخية "أن الفرس قديماً هم أصحاب السبق في هذا الاكتشاف و أن بيوت الثلج ظهرت لأول مرة في بلاد فارس ومن ثم انتقلت الى العديد من مناطق العالم "47.

وايضاً كان الثلج معروفاً ايضاً في شبه الجزيرة العربية قبيل الاسلام وان كان قليل الاستعمال والسقوط⁴⁸ ، اما في الفترات الاسلامية، فالمعروف ان الدولة الاسلامية في بدايتها دولة يغلب عليها حالة التقشف والفقر ، فالتفاوت المادي بين خص واخر كان بسيط ، خصوصاً وان النبي (صلى الله عليه واله وسلم) سعى جاهداً لتدوير الفوارق بين افراد المجتمع وجعل ميزان التقوى هو الغالب وهو اساس التفاضل ، وعليه فلم يشعر الفقير بفقره طالما ان الصورة المادية للأغلب واحدة⁴⁹ .

ومن هنا نجد الاغنياء كانوا قليلين جداً كما ان هذه القلة اعتادت على الحياة القاسية ولم تعتاد الترف ، ولذلك نرى ان استخدام الثلج خلال العهد النبوي والراشدي تكاد تكون معدومة الا ما ندر ، بالاضافة الى ما عرف عن شبه الجزيرة العربية ببيئتها الجافة ، وشدة حرارتها ، وعليه ندر تساقط الامطار فيها ، إذ ان بلاد الحجاز ليست من البلاد التي تنزل فيها الثلوج ، لذلك ما كان يوجد ثلج بمكة ولا بجدة ولا بالمدينة ولا بغيرها ، نعم قد ينزل بها أحياناً برد مع المطر ، فكان الناس يبردون ماء الشراب في نحو الأزيار والشراب⁵⁰ ، ثم اصبحت الثلوج و بمرور الوقت معروفة اكثر من ذي قبل عند العرب بفضل مصدرين :

اما عن طريق رحلات القوافل الى بعض البلدان الباردة ، إذ يتشكل الجليد فوق بعض المرتفعات ، والثاني نزول الثلج والبرد مع العواصف الرعدية وتحوله الى ماء يسقي الزرع (ودليل ذلك قول سعيد بن جبير حين سئل عن قوله تعالى: ((وفي السماء رزقكم وما توعدون))⁵¹ ، فقال : هو (الثلج)⁵² .

بالإضافة لذلك أن فكرة التبريد ذاتها كانت معروفة حينها من خلال وسيلتي التبخير والترطيب ، ومما يدل على ذلك دعاء النبي (صلى الله عليه واله وسلم) (اللهم اجعل حبك أحب إلي من الماء البارد على الظمأ)⁵³ .

اما عن الثلج في العصرين الاموي والعباسي

اصبح توفر الثلج بشكل اكبر من كل النواحي ، فالرويات التاريخية تشير الى "قيام الأمويين بشراء الثلج من جبال لبنان والمرتفعات السورية في الشمال"⁵⁴ ، بسبب تحسن الاوضاع الاقتصادية بمرور الوقت خلال العهد الاموي واسدلت الدنيا بأسدها واعتاد الناس الترف ، ولذلك اخذ الباعة (الثلاجون) بجلب الثلوج من مناطق بعيدة ليبيع بأسعار عالية ، وكان حكراً على الطبقة الحاكمة وحواشيها والاثرياء لارتفاع ثمنه وعجز الاغلبية عن شراءه⁵⁵ .

فكان "الحجاج بن يوسف (75 - 95 هـ / 694 - 714 م)، هو أول من حمل الثلج وشرب منه خلفاء بني امية"⁵⁶ .

وقد ذكر علي بن محمد بن سليمان الهاشمي "أن أباه محمدا حدثه أن الأكاسرة كان يُطَيَّن لها في الصيف سقف بيت في كل يوم ، فتكون قائلة الملك فيه وكان يؤتى بأطنان القصب والخلاف طوالاً غلاظاً فترصف حول البيت ويؤتى بقطع الثلج العظام فتجعل ما بين أضعافها وكانت بنو أمية تفعل ذلك"⁵⁷ .

أما العباسيين فقد حرص الخلفاء وكبار رجال دولتهم من الوزراء والكتاب والقادة ورجال الحكم على التزود من الثلج سواء في بغداد او في خارجها ، فكانوا يستوردون قطع الثلج على ظهور الجمال والبغال ورغم أن معظمنا لا يتصور

إمكانية نقل الثلج إلى مسافات بعيدة ، إلا أنه يدل حتماً على تطور القدرة العلمية التقنية للمسلمين آنذاك لحفظ الثلج ، فقد "كان المنصور أول من اتخذ الخيش" ⁵⁸ من بني العباس ⁵⁹.

و في سنة (160 هـ/777م) حج الخليفة المهدي (158-169 هـ/774-785م) وحمل إليه الثلج إلى مكة ، قال الذهبي تعليقاً على ذلك أنه : "لم يتيسر ذلك لملك قط ، فقد حمل محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي (122هـ-172هـ) (قائد عباسي كان والي البصرة والكوفة) الثلج إلى مكة ، وكان أول خليفة حمل له الثلج إليها" ⁶⁰.

ولم ينقطع الثلج عن مكة في عصره ، وقد "كان يُحمل على ظهور الإبل بعد أن يُقطع من جبال الثلج ويعالج بالتظليل والخيش إلى أن يصل مسافات بعيدة إلى مصر ومكة وبغداد" ⁶¹.

كما ورد كيفية تصنيعهم للثلج ، لحاجتهم إليه ، ووصلوا إلى معرفة كيفية تخزينه بوضعه في صناديق الرصاص المحكمة الغلق ، ووصلوا تبعاً لذلك ، إلى العديد من الطرق للاحتفاظ به مدداً طويلة ، ثم نقله إلى مسافات بعيدة ⁶².

اذ حرص الخليفة هارون الرشيد (170هـ-193هـ/787-809م) على توفر حمولات الثلج معه في أسفاره ، وكان يضايقه شرب الماء بدونه ⁶³ ؛ "فكان يحمل معه الثلج من بغداد إلى مكة على بغال البريد كلما حج ، وقد شاركهم في ذلك رجال دولتهم وحريمهم وأولادهم" ⁶⁴.

مثل هذه الرواية وتلك لهذه المعلومة المهمة ، التي حمل أكثر من احتمال في طياتها ، إذ تثبت أن الأوائل عرفوا طريقة تحفظ على الثلج تماسكه حتى يصل إلى مكة ، على غرار ما عرفه العرب المجاورون لحضارتي فارس والروم في تلك المدة من وسائل علمية متنوعة ، فكانت مسألة حفظ الثلج لمدد طويلة ، ونقله مسافات بعيدة ، واحدة منها.

وكان المأمون والوائق يحمل الهمما البطيخ معاً في قوالب من الثلج كي لا يفسد ، وذكر عنه قوله: "يستوي الشريف والوضيع في مرو في ثلاثة أشياء الطبخ النازك والماء البارد لكثرة الثلج بها والقطن" ⁶⁵.

كما برزت مهنة التلج في زمن الدولة العباسية فامتدتها بعض الأشخاص ممن يقومون ببيع الثلج ، وكان التلاجون يعتبرون من الطبقة الغنية ، إذ انهم يعتمدون على رفع أسعار الثلج صيفاً إلى مستويات خيالية ، وقد اثنى العديد منهم وأصبح من ذوي الثروات الطائلة ⁶⁶. ولم يتوقف الأمر على ذلك ، بل وتخصص بعض أمراء بغداد على الإشراف على هذه المهمة ، على غرار عبيد الله بن عبد الله بن طاهر بن الحسين الذي قام باستخدام بعض المتخصصين من التلاجين للإشراف على شراب الخلفاء والأمراء وتلجهم وما إلى ذلك ⁶⁷.

أما فيما يخص الرواتب والأجور التي تجمع من الثلج ، فأشار لنا ابن التغري بردي (ت: 874هـ/1470م) "أنه حينما وزر ببغداد أبو طاهر بن بقية الملقب بالناصر حدد له راتب من الثلج ألف رطل ، وكان هذا الوزير من صغار الكتاب الذين يكتبون لمعز الدولة البويهية" ⁶⁸.

فقد أدى احتكار الثلج أو ندرته في السوق إلى اغناء بعض الناس ، إذ يذكر ابن الجوزي ((..... أن أبو سليمان قال أن أبي يقول كان الثلج أصل نعمتي ، فقد أصبحت غنياً من ثمن خمسة أرتال من الثلج وذلك حين عز الثلج في بعض السنين في

بغداد وكان عندي منه شيئاً فبعته وبقي عندي منه خمسة أرتال، فاعتلت جارية لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر وكانت تلك الجارية روحه في الدنيا وهو آنذاك أمير بغداد فطلب ثلجاً" فنفذ ألي فقلت ما عندي إلا رطل واحد فلا أبيع له إلا بخمسة آلاف درهم وكنت قد عرفت الحال، فلم يجسر الوكيل على شراء ذلك ورجع يستأذن عبید الله فشتمه وقال له أشتريه بأي ثمن كان ولا تراجعني، فجاءني وقال خذ خمسة آلاف درهم وهات الرطل فقلت لا أبيعك إلا بعشرة آلاف درهم فلم يتجاسر على المراجعة وأعطاني عشرة آلاف درهم واخذ الرطل....⁶⁹ . واساء العديد منهم في العراق الى استغلال ندرته وبيعه بأسعار وصلت في بعض الاحيان من عشرة الاف الى العشرين الف درهم، ولم يستطع شرائه في هذه الحالة سوى الاثرياء.⁷⁰

ومع كل اهميته تلك، الا انه لم يعثر لهم على تنظيم ما، وما إذا كان لهم رئيس أو شيخ، بخلاف أنهم ارتبطوا بديوان الإنشاء على اعتبار صدور المراسيم التي حددت أوقات عملهم عنه، وقد نظمت تلك المراسيم كيفية جلب الثلج في موعده، وفرضت لهم الدولة مكافأة لقاء جلب الثلج (... وللمجهزين به من الخلع والإنعام رسوم مستقرة وعوائد مستمرة، وقد نبه على ذلك كله لموضع الفائدة فيه...)⁷¹ . ، كما كانوا يحصلون على مزايا العودة إلى بلادهم على خيل البريد وكان (... الواصلون بها على المراكب يعودون على البريد في البر...)⁷² . ، وهذا يُعد امتيازاً خاصاً لهم بالعودة إلى مواطنهم على خيول البريد.

الواضح ان الدولة قد فرضت ضريبة على بائعي الثلج وعلى اصحاب المسكرات الذين يستخدمون الثلج، وقد تفاوتت أسعار الثلج وفق توافره أو شحته، فكان يُباع الرطل في مواسم الشح بدرهم وثلث، كما حدث عندما قلت المياه جداً بدمشق، وفيها وغلا سعر الثلج بالبلد جداً إلى أن يبيع الرطل منه بدرهم وثلث، وهذا يعني أن سعر الرطل كان أرخص من ذلك في موسم توافره سواء بدرهم أم أقل، ، ولكن كان يُسوّى بعض الباعة استغلال حاجة الناس إليه فيرفعون سعر الرطل بأثمان مبالغ فيها، أو يستغلون حاجة الناس إليه ويتفننون في التحايل عليهم وبيعهم الثلج حتى وإن كان مصدر مياهه غير نقي من مياه البرك وما شابهها، وذلك على غرار التحايل الذي يحدث في أصناف أخرى من السلع.⁷³

اذ يظهر واضحاً وجلياً دور الدولة بإصدارها مراسيم من ديوان الإنشاء إلى الثلاثين لحثهم على جلب الثلج في موعده لاستخدامه في تبريد المياه.⁷⁴

فكان اهل بغداد يستخدمون الثلج لعدة اغراض وليس فقط على صناعة الثلج والمشروبات المثلجة في ذلك الزمان البعيد⁷⁵ . بل كانوا يعتنون بتبريد الفواكه، كالتوت بالثلج.⁷⁶

فأستغل العديد من المتنفذين ذلك وأصبح من ذوي الثروات الطائلة، ومما اقترن بواحد من اخطر الوزراء الشهيرين الا وهو ابو الحسن علي بن محمد الفرات وزير الخليفة المقتدر الذي تقلد وزارته في سنة (304هـ/ 916م)⁷⁷ . ، ويذكر انه حين تولي الوزارة كان ذلك اليوم شديد الحر، فسقي في ذلك النهار وتلك الليلة اربعين الف رطل من الثلج، وكان هذا الوزير قد عرف بفساده كلما تقلد الوزارة، إذ تقلدها ثلاث مرات، فكان يزيد سعر القراطيس والشمع والخيش، والثلج، والكاغد⁷⁸ . لكثرة استعماله لذلك، لأنه ما كان يشرب أحد كائناً من كان في داره في الفصول الثلاثة إلا الماء المثلج⁷⁹ ..

وكانت انذاك قصور الخلفاء والامراء والاثرياء لاتخلوا من الثلج في فصل الصيف حيث كان هناك مكان خاص لخزنه⁸⁰ وهناك العديد عن اخبار عن الثلج واتخاذة في تلك الفترة⁸¹ فلقد كانت فيها عدة أماكن يسقى فيها الماء المثلج ولقد كثر اقترن ذكر الثلج بوزير الخليفة العباسي المقتدر بالله الذي تقلد ثلاث مرات الوزارة وهو أبو الحسن علي بن محمد ابن الفرات⁸²

فكان كلما تقلد الوزارة يزيد الأسعار في كل من القراطيس والشمع والخيش والتلج زيادة كبيرة فلقد كان ذلك متعارف عليه عند التجار لكثرة ما كان يستعملها ويخرج من داره للناس⁸³.

اذ كانت في ناحية من قصره (دار كبيرة للشرب وفيها ماذيان يجعل فيه الماء ليبرد ويطح في التلج ويسقى منه جميع من يريد الشرب الرجالة والفرسان والاعوان والخزان ومن يجري مجرى هذه الطبقة من الاتباع والغلمان ومزملات التي هي اشبه بأناء كبير من الرخام او الصخر يخزن فيه الماء ليبرد اسفله ثقب صغير لتصريف الماء منها أي اشبه بالجرة في وسطها ثقب لها غطاء من الصخر، يكون الماء فيها شديد البرودة وبرسم خزانة الشراب خدم يرتدون من الثياب النظيفة الديبقية السرية وفي يد كل واحد منهم قذح فيه سكينجين او جلاب ... وكوز ماء ومنديل من مناديل الشراب النظيفة فلا يتركون أحدا ممن يحضر الدار من القواد والخدم السلطانيين والكتاب والعمال الا عرضوا ذلك عليه)⁸⁴

بالإضافة الى ان احد السلاطين البويهيين وهو أبو شجاع فناخسرو الملقب بعضد الدولة الذي عني بالإصلاح في بغداد انه قام في اخر فترة حكمهم بمنع العمل بالتلج وجعله خاص فقط بالسلطان بعكس السابق انه كان يسمح للكل بالعمل به⁸⁵

يتبين لنا ان لناس كان يستغلون فرص تساقط التلج وقت الشتاء ويقومون بخزنه تحت الأرض في مكان معد له فاذا جاء فصل الصيف قاموا ببيعه باثمان غالية فيحققون بذلك أرباح طائلة.

اذ كان تعتبر اشربه التلج من الاشربه المهمة في تلك الفترة فقد كان كثيرا ما يستخدم في الحفلات وقت الصيف فذكر انه في إحدى الحفلات في بغداد قد اعد جميع المشروبات بالتلج والسكر وماء الورد والمسك وكان السقاة يملأون الكيزان وهي جمع كوز⁸⁶ من ذلك على طول الوقت

وفي هذا الصدد انشد أبو إسحاق الصابي:

لهف نفسي على المقام ببغداد وشربي من ماء كوز بتلج

كما كان أكثر الناس يقومون بتبريد الأطعمة والفاكهة لاعتقادهم انه مفيد للصحة وقت الصيف ومن الروايات الطريفة عن بيع التلج عن ابن سلمان التلج عن ابيه وهو من بغداد يذكر (كان أصل نعمتي من ثمن خمسة ارطال تلجاً ، وذلك انه عز التلج في بعض السنين ببغداد ، وقل وكان عندي منه شيء بعته ، وبقي منه خمسة ارطال ، فاعتلت شاجي جارية عبيد الله⁸⁷ بن عبد الله بن طاهر ، وهو اذ ذاك أمير بغداد فطلبت منه تلجاً ، فلم يوجد الا عندي ، فجأؤوني ، فقلت : ما عندي الا رطل واحد ولا ابيعه الا بخمسة الاف درهم وكنت قد عرفت الصورة فلم يجسر الوكيل على شراء ذلك ، ورجع بمنزلة روحه ، وهي تتضور على التلج ، وتلج في طلبه ، فشتمه عبيد الله ، وقال : امض واشتره بأي ثمن كان ولا تراجعني فجاءني فقال : حذ خمسة الاف درهم . وهات الرطل ، فقلت : لا ابيعك إياه الا بعشرة الاف درهم فلم يجسر على الرجوع للاستئذان ، فأعطاني عشرة الاف درهم واخذ الرطل وسقيت العليلة منه ، فقويت نفسها ، وقالت اريد رطلاً اخر . فجاءني الوكيل بعشرة الاف درهم وقال : هات رطلاً ان كان عندك فبعت ذلك عليه . فلما شربته العليلة تماثلت وجلست وطلبت زيادة فجأؤوني يلتمسون ذلك ، فقلت ما بقي عندي الا رطل واحد ولا ابيعه الا بزيادة فداراني واعطاني عشرة الاف درهم واخذ رطلاً وداخلتني رغبة في ان اشرب انا شيئاً من التلج ، لاقول اني شربت تلجاً سعر الرطل منه عشرة الاف درهم ، قال فشربت منه رطلاً وجاءني

الوكيل قرب السحر ، وقال : الله : الله ، قد والله صلحت العليلة وان شربت شربة أخرى برأت فان كان عندك منه شيء فاحتكم في سعره فقلت له : والله ما عندي الا رطلا واحد ولا ابيع الا بثلاثين الفاً ، فقال خذ : فاستحيت من الله ان ابيع رطل تلج بثلاثين الفا ، فقلت : هات عشرين الفا واعلم انك ان جئتني بعدها بملء الأرض ذهباً لم تجد عندي شيئاً فقد فني فأعطاني العشرين الف واخذ الرطل ، فلما شربت شاي ، أفأقت واستدعت الطعام ، فأكلت وتصديق عبيد الله بمال ، ودعاني من غد ، فقال : انت - بعد الله رددت حياتي بحياة جاري ، فاحتكم ، فقلت : انا خادم الأمير وعبيده قال : فاستخدمني في ثلجه وشرابه ، وكثير من امر داره ، فكانت تلك الدراهم التي جاءني جملة اصل نعمتي وقويت بما انضاف اليها من الكسب مع عبيد الله طول ايامي معه ⁸⁸

بالإضافة الى استخدام وسائل عديدة للتبريد في تلك الفترة باستخدام السرايب والبادنجات :

فالبادنج كلمة فارسية مؤلفة من مقطعين: «باد» (وتعني هواء) و«نج» (وتعني الفوهة). ويقابل البادنج باللغة العربية «الملقف» (وهو ما يعمل على صفق الهواء وتلقفه وتغيير اتجاهه). يعرف الملقف بما يلي: «أنبوب شبيه بأنبوب الموقد فتحتة بمواجهة الرياح السائدة في منطقة ما وله فوهة في جدار غرفة أو عدة غرف من البيت، ويتألف الملقف عموماً من بوابة لها غطاء تحكّم ونفق تهوية وخزانة تهوية وعقدة تحكّم ⁸⁹». لكلمة البادنج مرادفات هي: الباذهنج والرجيل والبارجيل.

كما اتخذت السرايب للسكنى في أوقات متأخرة من الدولة العباسية حيث بالغ الناس الأثرياء في العناية بها وقت الصيف من حيث التزيين والترتيب وتنصيب الشاذروانات وأيضا الباذهنجات فكان أهالي بغداد أكثر وقتهم فيها أيام الصيف، فكانوا يملأون كيزان الخزف بالماء ويضعونها بين ايدي تلك الباذهنجات فيبرد الماء لساعته. وقد ذكر الصفدي رواية عن ذلك بقوله (.... وقيل ان الناس تعجبوا على كثرتهم وشرهم الماء مبرداً في كيزان عامة ذلك النهار فسئل عن ذلك فيما بعد فقال : تشترينا خمس مئة كوز ويعننا الى الجيران قليلا قليلا يبردوا ذلك في الباذهنجات التي لهم ...) ⁹⁰

فذكر ان أحد خلفاء الدولة العباسية الخليفة المعتصم (218-228 هـ / 833-842 م). للعمارة أمور مفيدة منها الأراضي العامرة التي يحيا بها دول العالم وبها يزدهر الخراج وتزداد الأموال وتعتاش عليها المواشي ورخص الأسعار والكسب الوفير، وتزدهر الحياة المعاشية فيها. ⁹¹ فقد كان يذكر لوزير محمد بن عبد الملك (اني لو وجدت مكاناً متى صرفت عليه عشرة دراهم اتاني منها بعد سنة عشرة دراهم ، فلا تؤامرني به) ⁹².

الخاتمة:

يتضح لنا من خلال تلك الفترة ان بغداد كانت في الفترة السابقة ذا حضارة راقية تشع بنورها الى كافة الافاق والبلدان فالتطور الحاصل بها لم يقتصر على المعارف والبحوث آنذاك اذ امتدت الى التطور بمختلف نواحي حياتها وخير مثال على ذلك التطور ما نشاهده من اثار شامخة من الطراز والعمران من خلال بيوتها وطرق بنائها فكانت بيوت الأغنياء والامراء تختلف عن بيوت الفقراء كما كان الأغنياء والمترفين يقومون بأنشاء الدور الخاصة بهم للتخلص من حرارة الجو وبرودته بالإضافة الى التطور الحضاري التي شهدته في مختلف المجالات فلقد ابتكر سكانها العديد من الطرق للتخلص من حرارة الجو او برودته من خلال بناء السرايب والبازهنجاناات .

بالإضافة الى استخدام مراوح الخيش للتخلص من حرارة الجو وأيضاً من خلال استخدامهم للثلج لتبريد الماء والفاكهة حيث احتل الثلج مكانة كبير في حياة الناس وكثر استخدامه وخاصة في زمن الدولة العباسية كما كان للثلج دور كبير في توفير أموال للدولة من خلال فرض الضرائب عليه وبالتالي يتم توفير مورد مالي لخزينة الدولة

اما اهم ماتم التوصل له في تلك الفترة عن مدينة بغداد انها كانت في فترة من الازهار الاقتصادي في ظل الدولة العباسية والتطور الحضاري والفكري وخير مثال على ذلك استخدام الوسائل العصرية في بيوت الخلفاء ومنازل الاغنياء بالإضافة الى بعض بيوت الميسورين ومنها المراوح والثلج. الى جانب التطور الحاصل في الجانب الفكري والثقافي فكانت مصدر للاشعاع من كافة النواحي لكل البلدان .

الهوامش (الإحالات):

- ¹ اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت بحدود 284هـ/897م): البلدان ، مطبعة ليدن (د.م، 1310هـ/1892)، ص11.
- ² ابن رسته، شهاب الدين بن عمر، (ت912م): الاعلاق النفيسة ، المكتبة الجغرافية ، مطبعة ليدن (د.م:د.ت)، ص108: الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (ت 463هـ / 1070م) ، تاريخ بغداد، (بيروت: دار الكتب العلمية، بلا)، ج1 ص58: الحموي، ياقوت بن عبد الله، (ت626هـ/1229م)، معجم البلدان، (بيروت: دار الفكر ، د.ت)، ج1 ص477-478.
- ³ المطران يعقوب اوجين منا: معجم دليل الراغبين في لفظة الاراميين، منشورات مركز بابل ، بيروت ، 1975، ص91.
- ⁴ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ، ج1 ص77.
- ⁵ البلاذري: احمد بن يحيى بن جابر بن داود (ت279هـ): انساب الاشراف، تحقيق سهيل زكار ، رياض الزركلي ، دار الفكر ، بيروت، 1996م، ص283-297: اليعقوبي: البلدان ، ص233.
- ⁶ البلدان ، ص238.77.
- ⁷ السمعاني، عبد الكرم بن محمد بن منصور التميمي (ت562هـ/1166م): مختصر تاريخ بغداد ، دار الكتاب العربي (بيروت، د.ت)، ص5-6.
- ⁸ اليعقوبي: البلدان ، ص250.
- ⁹ الحيري بكمين : السدلى والسدير ، ميخائيل عواد ، مجلة الثقافة ، القاهرة 13 و 20 و 27 ، اكتوبر ، 1942 م.(القسم الاول ع198، ص5-8، القسم الثاني ، ع199، ص19-21، القسم الثالث ع2000، ص19-20
- ¹⁰ المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت346هـ/957): مروج الذهب ومعادن الجوهر، حققه ، محي الدين عبد الحميد، ط4، مطبعة السعادة (مصر، 1384هـ/1964م)، ج7 ص192-193.

- ¹¹ هاري الكرمللي: مجلة لغة العرب ، 2، مطبعة الاداب ، بغداد ، 1911- 1931 ، ص516-517.
- ¹² الثريا قصر كبير يشمل ابنية قام ببنائها المعتصم (279-289هـ/829-902م) بالقرب من قصر التاج ببغداد الشرقية ، فقد عمل بينهما سرداب يمشي فيه خطاياه من الخصر الحسي ، عفى اثر الثريا ، في سنة 466هـ/1073م) ، معجم البلدان ، ج1 ص924 ، مادة الثريا
- ¹³ ينظر ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن محمد ، (ت:597هـ/1201م) ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط1 ، (بيروت: دار صادر، 1358هـ/1940)، ج10 ص80-84 ، ابن كثير، ابو الفداء الحافظ اسماعيل بن عمر الدمشقي (774هـ/1372): البداية والنهاية، تحقيق، د.عبدالله بن عبدالمحسن التركي ، دار عالم الكتب للطباعة، والنشر (الرياض، 1417هـ/1997م)، ج12 ص215-216.
- ¹⁴ البثيون : هو البزال الذي يعمل من انبوبة تنثقب ثقباً وتركب في الثقب انبوبة اخرى متصلة تدار فيه للفتح والسد والانبوبة المركبة في الاناء تسمى الانثى والانبوبة المركبة في ثقب الانبوبة تسمى الذكر والكلمة من اليونانية ، ينظر : بشأن البثيون ، الخوارزمي، : محمد بن احمد بن يوسف ابو عبد الله البلخي : مفاتيح العلوم ، تحقيق ، ابراهيم الايباري ، ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1989، ص252-253.
- ¹⁵ ابن الجوزي : المنتظم ، ج9 ص9-10 .
- ¹⁶ فهو من ابواب دار الخلافة في بغداد وكان مزين الورود ، ينظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج1 ص451.
- ¹⁷ كوركيس عواد ، الدار المعزية من اشهر مباني بغداد في القرن الرابع الهجري (مجلة سومر ، 10،) بغداد ، ج2 ص197-217
- ¹⁸ ابو علي احمد بن محمد بن يعقوب (ت421هـ/1030م : تجارب الأمم وتعاقب الهمم، مطبعة التمون الصناعية (مصر، 1334هـ/1915م)، ج6 ص183.
- ¹⁹ التنوخي ، المحسن بن علي بن محمد بن ابي الفهم داود البصري (ت384هـ): نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة، دار صادر ، بيروت ، 1972، ج1 ص138.
- ²⁰ جمع باذهنج ، وهو المنفذ الذي يجيء منه الريح ، الخفاجي ، شهاب الدين احمد المصري (ت 977هـ/387م): شفاء الغليل في كلام العرب من الدخيل (مطبعة المنيرية ، 1954م)، ص47-48.
- ²¹ نسيج من الكتان ، واول من علق الخيش له هو الحجاج بن يوسف الثقفي امير العراق ، ينظر : البيهقي ، أبو الفضل محمد بن حسين (ت470هـ/1077م): المحاسن والمساوئ ، نشر ، دار سعد الدين ، مطبعة السعادة للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1 ، مصر ، 1906، ج2 ص50
- ²² ابن طباطبا، محمد بن علي بن الطقطقي (709هـ/1309م): الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية ، دار صادر (بيروت، 1966م)، ص215.
- ²³ الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير(ت310هـ/922م): تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل ، دار المعارف (القاهرة، د.ت)، ج3 ص417-418؛ الثعالبي، أبو المنصور عبد الملك محمد بن اسماعيل النيسابوري (ت429هـ/1037م): لطائف المعارف (تحقيق، ابراهيم الأنباري وحسن كامل، بيروت، دار إحياء الكتب العربية ، 1960م)، ص14-15.
- ²⁴ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج3 ص417-418 (سنة 158هـ)، الثعالبي : لطائف المعارف ، ص14015..
- ²⁵ ابن منظور، ابا الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، (ت711هـ/1311م): لسان العرب، ط6، دار صادر (بيروت، 1997م)، ج4 ص286.
- ²⁶ ابن منظور: لسان العرب ، ج3 ص265.
- ²⁷ الشريشي: ابي العباس احمد بن عبد المؤمن القسي :شرح مقامات الحريري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة المصرية ، بيروت، 1992م، ج5 ص57.
- ²⁸ الازرق: ابي الوليد محمد بن عبد الله بن احمد (ت250): اخبار مكة وما جاء فيها من الاثار، تحقيق :د. عبد الملك بن عبد الله دهيس ، ط1 ، 2003م، ص353.
- ²⁹ دوزي : وبنهارت : تكملة المعاجم العربية ، ترجمة ، محمد سليم ، جمال الخياط ، وزارة الثقافة والاعلام العراقية ، ط1 ، 1979م، ج4 ص256.
- ³⁰ النويري : احمد بن عبد الوهاب بن محمد عبد الدائم القرشي (ن733هـ): نهاية الارب في فنون الادب ، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ط1 ، 1423هـ، ج1 ص356.
- ³¹ الطقطقي ، محمد بن علي بن طباطبا (ت709هـ) : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، تحقيق عبد القادر محمد مايو ، دار القلم العربي ، بيروت ، ط1 ، 1997م، ص156.
- ³² ينظر: ناجي محفوظ : المرواح والخيوش ، مجلة العاملون في النفط ، 6، بغداد ، ايلول ، 1966، ع54، ص6-9، والعاملون في النفط ، 1969، ع8، ص83، ص10-12 (المرواح).

- ³³ التيفاشي ، أبو العباس يوسف بن احمد (651هـ) : سرور النفس بمدارك الحوامس الخمس ، تحقيق ، احسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط 1 ، 1980م ، ص228.
- ³⁴ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ، ج8 ص82.
- ³⁵ البلاذري: انساب الاشراف ، ج4 ص241.
- ³⁶ ابن طيفور ، أبو الفضل احمد بن ابي الطاهر (ت280هـ): كتاب بغداد ، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 3 ، 2002م ، ج1 ص56.
- ³⁷ ابن ابي اصيبعة ، احمد بن القاسم بن خليفة بن يونس (ت668هـ): عيون الانباء في طبقات الأطباء ، تحقيق ، نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 204-205.
- ³⁸ التنوخي ، المحسن بن علي بن محمد بن ابي الفهم داود البصري (ت384هـ): الفرج بعد الشدة ، تحقيق عبود الشالجي ، دار صادر ، بيروت ، 1978م ، ج2 ص138.
- ³⁹ الاصمهاني : عماد الدين الكاتب (ت597هـ) خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق محمد بهجة الاثري ، جميل سعيد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، 1955م ، ج2 ص256.
- ⁴⁰ المنتظم ، ج10 ص640 ، حوادث 530هـ.
- ⁴¹ ابن منظور: لسان العرب ، ج2 ص22.
- ⁴² ابن منظور: لسان العرب ، ج2 ص22.
- ⁴³ زكريا ، ابي الحسن احمد بن فارس ، (ت: 970/395م)، معجم المفاتيح في اللغة العربية ، تحقيق: شهاب الدين عمرو، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، د.ت)، ص186. ولزيادة التفاصيل ينظر: الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (ت: 1205 هـ/ 1790 م)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مصطفى حجازي، (د.ت)، (د.ت)، 448/5.
- ⁴⁴ النسائي، عبد الرحمن احمد بن شعيب (ت: 915/303هـ)، سنن النسائي، (ط. بيروت: دار الكتب العلمية ، 1422هـ/ 2002م)، ص61.
- ⁴⁵ الدارقطني ، ابي الحسن ، (ت: 385هـ/ 996م)، المؤتلف والمختلف، دراسته و تحقيق: د. موفق بن عبد الله بن القادر، ط 1 ، (دار الغرب الاسلامي، 1407/ 1986)، 298/2.
- ⁴⁶ الانصاري، يوسف، الجغرافية الطبيعية ، ط1، (مصر: مطبعة التمرين، 1406هـ/ 1985م)، 186/1. ولزيادة التفاصيل ينظر: علي ، علي عبد الكريم ، علم الجغرافية الطبيعية ، ط1، (العراق: البصرة ، دار الطباعة الحديثة ، 1388هـ/ 1969م) ، ص58-59. شو، ناير، قصة الطقس، القاهرة: مكتبة نهضة مصر ، 1376هـ/ 1956م)، ص309. السلطان ، عبد الغني جميل ، الجو عناصره وتقلباته ، (بغداد: دار الحرية للطباعة والنشر ، 1407هـ/ 1986م) ، ص257. افبري، محاسن الطبيعة وعجائب الكون، تعريب: وديع البستاني، ط2، (مصر: مطبعة المعارف، 1351هـ/ 1932م)، ص121. الكاظمي ، حيدر حسين، الظواهر الطبيعية (الموسوعة الكونية لآل البيت)، اشراف: فاضل الصفار، (بيروت: سحر للطباعة والنشر ، 2002/ 1422)، ص166.
- ⁴⁷ العمري ، شهاب الدين بن فضل الله (ت: 748هـ/ 1348م)، التعريف بالمصطلح الشريف ، (القاهرة: مطبعة القاهرة، 1312هـ/ 1895م)، ص199.
- ⁴⁸ فقد ورد ان وفد قريش على سيف بن ذي يزن بزعمه عبد المطلب لتهنئته على حكم اليمن،..... (فقال سيف بن ذي يزن: إذا ولد بتهامة غلام به علامة، له الإمامة، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة. قال: فقال عبد المطلب بن هاشم: أبيت اللعن لقد أبت بخبر ما أب به وفد قوم، ولولا هابة الملك وإعظامه وجلالته لسألته من إشارة إياي ما أزداد به شرفاً، فإن رأى الملك أن يخبرني بإفصاح فقد وضح لي بعض الإيضاح. قال: فقال سيف بن ذي يزن: هذا حينه الذي يولد فيه، أو قد ولد، اسمه محمد، بين كتفيه شامة، يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه، قد ولدناه مراراً، والله باعته جهاراً..... ، قال: فخرَّ عبد المطلب ساجداً. فقال: له سيف بن ذي يزن: ارفع رأسك، فقد تلج صدرك وعلا كعبك،...).
- الخزاعي ، دعبل بن علي (ت: 246هـ/ 680م)، وصايا الملوك وأبناء الملوك من ولد قحطان بن هود تحقيق: نزار أباطة ، ط 1، (دمشق: دار البشائر ، 1417هـ/ 1997م)، ص81.
- ⁴⁹ ينظر: العمري ، عبد العزيز ابراهيم ، الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم)، (قطر: مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، 1406هـ/ 1985م)، ص16.
- ⁵⁰ حلواني، رثيفة، البريد في عصر المماليك ، رسالة ماجستير غير منشورة ، بيروت ، ص82.
- ⁵¹ سورة الذاريات ، آية (22).
- ⁵² ينظر: البخاري، محمد بن إسماعيل (ت: 256هـ/ 869م)، صحيح البخاري، (بيروت: دار كثير ، 1414هـ/ 1993م)، 266/2.
- ⁵³ النووي ، يحيى بن شرف الدين (ت: 676هـ/ 1277م)، المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، (بيروت: دار احياء التراث العربي، 1392هـ/ 1973م) ، 3/ 1046.

- ⁵⁴ ينظر: ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج 6/ 118.
- ⁵⁵ ابو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله، (ت: 400هـ/1009م)، كتاب الاوائل، تحقيق: وليد قصاب ومحمد المصري، ط2، (الرياض: دار العلوم، 1402هـ/1981م)، 58-53/2.
- ⁵⁶ ابن كثير، البداية والنهاية 132/10.
- ⁵⁷ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 456/1.
- ⁵⁸ ثياب في اردء الكتان. الرازي، محمد بن ابي بكر (ت: 666هـ/1267م)، مختار الصحاح، (ط. الكويت، 401هـ/1980م)، ص195.
- ⁵⁹ ابن كثير: البداية والنهاية 132/10.
- ⁶⁰ الذهبي، محمد بن عثمان، (ت: 748هـ/1348م)، العبر في خبر من غبر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، ط2، (الكويت 1367هـ/1948م)، 234/1.
- ⁶¹ الطبري: تاريخ الرسل، 456/1.
- ⁶² العمري ابن فضل الله شهاب الدين بن احمد بن يحيى، (ت: 749-700هـ)، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ص199.
- ⁶³ اليافعي، عبد الله بن اسعد بن علي بن سليمان (ت: 768هـ/1366م)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، الهند: (حيدر آباد الدكن: مطبعة دائرة المعارف النظامية، 1339هـ/1921)، 240/1.
- ⁶⁴ ابن ابيك، ابو بكر بن عبد الله بن ابيك الداودي (ت: ...)، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: اهارمان، (القاهرة: المعهد الالماني للآثار، 1371هـ/1952)، 307-306/9.
- ⁶⁵ ياقوت الحموي: معجم البلدان، 113/5.
- ⁶⁶ ينظر: ابن الأثير، محمد بن محمد بن عبد الواحد الشيباني، (ت: 630هـ/1233م)، الكامل في التاريخ، ط2، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1416هـ/1995م)، 22/7.
- ⁶⁷ ابن شاهين، زين الدين عبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهري (ت: 920هـ/1515م)، نيل الامل في ذيل الدول، تحقيق: عمر عبد السلام، ط1، (بيروت: المكتبة العصرية، 1422هـ/2002م)، 172/1.
- ⁶⁸ ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن، (ت: 874هـ/1470م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر مصر، د.ت)، 66/4.
- ⁶⁹ ابن الجوزي: المنتظم، 118/6.
- ⁷⁰ ابن الجوزي: المنتظم، 118/6.
- ⁷¹ العمري: التعريف، ص199.
- ⁷² العمري: التعريف، ص199.
- ⁷³ ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين احمد بن علي (ت: 852هـ/1449م)، انباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، تحقيق: حسن حبشي، (القاهرة 1392هـ/1972م)، 35/3.
- ⁷⁴ القلقشندي، ابي العباس احمد بن علي (ت: 821هـ/1419م)، صبح الاعشى في صناعة الانشا، (د.ط)، (د.ت)، 397/14.
- ⁷⁵ الهمداني: بديع الزمان، أحمد بن الحسن بن يحيى (ت: 398هـ/1008م)، مقامات بديع الزمان الهمداني، تحقيق: محمد عبده، ط3، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1426هـ/2005م)، المقامة البغدادية.
- ⁷⁶ ينظر: العمري: التعريف، ص199-200.
- ⁷⁷ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، 22/7.
- ⁷⁸ الكاغد: القرطاس، أي الورق الصالح للكتابة. الرازي، مختار الصحاح، 577.
- ⁷⁹ ابن كثير: البداية والنهاية، 126/11.
- ⁸⁰ ابن رسته، احمد بن عمر (ت: 290هـ): الاعلاق النفيسة دار احياء التراث العربي، بيروت، 1988، ص198.
- ⁸¹ ابن النديم: ابن النديم، أبو الفرج محمد بن يعقوب اسحق المعروف بالوراق (ت: 385هـ/995م): الفهرست، تحقيق: رضا تجدد، (طهران، 1319هـ/1971م) الفهرست، ص359.
- ⁸² الصايي، الهلال ابو الحسن بن المحسن (ت: 448هـ): تحفة الامراء في تاريخ الوزراء، مطبعة الاباء اليسوعيين، بيروت، 1904، ص8-260.
- ⁸³ ابن مسكويه: تجارب الامم، ج5 ص120: ابن الجوزي: المنتظم، ج6 ص138.

⁸⁴ الصابي: تحفة الامراء س195.

⁸⁵ ابن مسكويه: ذيل تجارب الامم ص171، حوادث سنة 372هـ.

⁸⁶ مروج الذهب، ج7 ص192-193.

⁸⁷ وهو عبيد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب ابو احمد الخزاعي: اديب شاعر انتهت اليه ولاية بغداد وجده طاهر بن الحسين ذو اليمينين

الذي ولاه المامون خراسان والمشرق سنة اربع ومئتين توفي عبيد الله سنة 399هـ/913م، ابن الجوزي: المنتظم، ج6 ص117-119.

⁸⁸ التنوخي: نشوار المحاضرة، ج1 ص125-127: نقلا عن ابن الجوزي: المنتظم، ج6 ص118-119، حوادث سنة 300هـ، ابن كثير: البداية

والنهاية، ج11 ص119.

⁸⁹ حمد مظفر النوري: "البادنج". الموسوعة العربية. Retrieved 2014-07-07.

⁹⁰ الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك (ت 764هـ/1363م): الوافي بالوفيات، اعتناء مجموعة من الاساتذة، سلسلة النشرات الاسلامية

لجمعية المستشرقين الألمانين، باشراف هلموت ريتز، (دار فرانز شتاين 1392هـ/1972م)، ج1 ص224..

⁹¹ المسعودي: مروج الذهب، ج7 ص104

⁹² المسعودي: مروج الذهب، ج7 ص104